خطبة حجة الوداع :
المنظومة الشاملة لحياة الأمة الإسلامية

الأستاذ/ الجيلالي عشاب
إمام أستاذ/ مديرية الشلف

مقدمة :

شعر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن حياته قد انطوت، وأيامه قدانتهت، لأنه أدى ماعليه، وأقام دينه العظيم يؤدي فعالياته في توجيه الإنسان وإقامة سلوكه. فإذن لابد له صلى الله عليه وسلم من الرحيل عن هذه الحياة ، فقد كانت هناك إنذارات متوالية تدل على ذلك، وهي كمايلي:

- أولها : أن القرآن الكريم نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، مرتين فاستشعر صلى الله عليه وسلم بذلك حضور الأجل المحتوم، وأخذ ينعي نفسه وذيع بين المسلمين مفارقته لهذه الحياة.

وكان يقول لبضعته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضي الله عنها (إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضني به العام مرتين ، وما أرى ذلك إلا اقتراب أجلي)

- ثانيها : أنه نزل عليه الوحي بهذه الآية الكريمة **(إنك ميت وإنهم ميتون)** الزمر 30.

وكانت هذه الآية إنذارا له (صلى الله عليه وسلم) بمفارقة الحياة ، فأثارت كوامن التوجس في نفسه صلى الله عليه وسلم

- **ثالثهـــا** : نزلت عليه سورة النصر ، فكان صلى الله عليه وسلم يسكت بين التكبير والقراءة ويقول (سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه). ففـــزع المسلمون وذهلـــوا ، وانطلقوا إليه يسألونه عن سبب ذلك ، فأجابهم صلى الله عليه وسلم : (إن نفسي قد نعيت إلي). وكان وقع ذلك عليهم كالصاعقة ، فلا يعلمون ماذا سيجري عليهم إن خلت هذه الدنيا من النبي صلى الله عليه وسلم.

حجة الوداع : فلما أحس النبي صلى الله عليه وسلم بدنو الأجل المحتوم منه، رأى أن يحج إلى بيت الله الحرام ليلتقي بعامة المسلمين، ويعقد هناك مجلسا عاما يضع فيـــه الخطوط السليمة لنجاة أمته، ووقايتها من الزيغ والإنحراف. فحج صلى الله عليه وسلم حجتـــه الأخيرة الشهيرة بـــ (حجة الوداع) في السنة العاشرة من الهجرة، وسميت تلك الحجة بـــ (حجـــة الوداع)، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، انتقل إلى الرفيق الأعلـــى ، بعد حوالي ثلاثـــة أشهر مـــن خطبته.

فأشاع فيها بين الوافدين لبيت الله الحرام أن التقاءه صلى الله عليه وسلم بهم في عامهم هذا هو آخر عهدهم به وجعل يطوف على الجماهير، ويعرفهم بما يضمن لهم نجاحهم وسعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة فاستهل خطبته صلى الله عليه وسلم قائلا : الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله

من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلاهادي له وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمدا عبده ورسولـــه : أوصيكم عباد الله بتقـــوى الله وأحثكم على طاعته، وأستفتح الذي هو خير أما بعد :" أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لاألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لاترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض، وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤديها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ولكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون قضى الله أنه لاربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد / أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبـــدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا، عليهن

ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غر مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئا وإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا : كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم.

فذكر لي أن الناس قالوا نعم. فقال رسول الله صلى الله ...اللهم هل بلغت عليه وسلم اللهم اشهد قال ابن اسحاق كان الرجل الذي يصرخ في الناس يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف. يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل : " يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل ترون أي شهر هذا ؟ فيقول لهم...فيقولون : الشهر الحرام؟ فيقول لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هدا... ثم يقول: قل يا أيها الناس إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:" هل تدرون أي بلد هذا؟" فيصرخ به. فيقولون: البلد الحرام، فيقول: قل: إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا، ثم يقول : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أي يوم هذا ؟ فيقول لهم ... فيقولون يوم الحج الأكبر. فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ألا هل بلغت؟

قالوا: نعم. قال: اللهم أشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع... رواه الإمام أحمد والترمذي .

القضايا المعروضة في الخطبـــة :

إن مجموعة القضايا التي عرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الخطبة، في حجة الوداع، تشكل المرتكزات الأساسية، التي يقوم عليها المجتمع الإسلامـــي والتي لابد من حراستها، وعدم السماح بخرقها، والخروج عليها من الحاكم والمحكوم، والأمر الذي لايحتاج إلى مزيد بيان، إن هذه المرتكزات هي التي انتهى إليها المجتمع المسلم، وتربى عليها، فلا يجوز التفريط فيها ... وتأتي أهميتها في أنها خطبة المودع، الذي حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة ورعى مسيرتها ثلاثة وعشرين عاما ... لقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المعاني، من خلال مسيرة النبوة الطويلة، ليؤكد عليها، وينبه لهـــا دون سواهـــا، فلماذا هذه المعاني دون غيرها ؟ ذلك لأن عدم التزامها ، يؤدي إلى دمار المجتمع ، ولايعوزنا الدليل ـــ نحن المسلمين ـــ في القرن الخامس عشرالهجري حيث نرى السقوط بأم أعيننا....

الأمـــن النفسي والاقتصـــادي:

إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا ... لاترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض ... لقد أجمع العلماء أن مقاصد الشريعة هي: تحقيق مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، ولايتحقق ذلك إلا بحماية الكليات الخمس، التي لاتستقيم

الحياة، ولاتتحصل السعادة، إلا بتوفرها وحمايتها وهي : العقل والنفس والدين والعرض والمال . ولسنا بحاجة هنا إلى التذكير، والتدليل بأن الدماء المسلمة، التي تسيل يوميا كالأنهار، في أكثر من بلد، وأكثر من موقع، على يد المسلمين أنفسهم مهما كانت الشعارات، وكيفما كانت المسوغات قضية لاتخدم إلا أعداء الإسلام في نهاية المطاف لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .. إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ــ متفق عليه ــ إن إراقة دم المسلم أكبر عند الله من هدم بيته الحرام ومن كل شيء في الدنيا لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ــ رواه الترمذي والنسائي فكيف ستكون مسؤولية الذين يتاجرون بدماء المسلمين ويأكلون بها ويقبضون ثمنها،ويبنون ثراءهم على جماجم المسلمين ؟ وكيف سيكون حسابهم عند الله؟ إن العالم الإسلامي عاش ثلاثة عشر قرنا تقريبا ــ بعيدا اقتصاده عن لوث الربا وقادرا على مواجهة مشكلاته المالية وحلها ، إلى أن جاء الإستعمار السياسي ، وجاء معه الإستعمار الإقتصادي ، وأصبح الربا سمـــة المعاملات المالية ، ومن لوازمها كما يدعون ، فأفقدنا ذلك الأمن الإقتصادي ، بعد أن افتقدنا الأمن النفسي ....

أمـــر الجاهليـــة :

إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي ...إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ... إن الجاهلية ارتكاس وهبوط ورجعية، إنها رفض الخضوع لحكم الله عز وجل، وسقوط في الطاغوت، بكل أشكاله، قال تعالى :" **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** "

(المائدة 50) إن أمر الجاهلية، وظهور النزعات الإقليمية الذي بدأ ولايزال مستمرا، هو الذي مزق الأمة، وأنهك قواها، إن الحدود التي وضعهـــا المستعمر وفرق عندها وحدة المسلمين ، يستميت في الدفاع عنها ، وإن النزاعات الجاهلية التي نبش قبورها المستعمر، نحاول أن نهب لها الحياة ونمنحها الإستمرار ... والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : دعوها فإنها منتنة ... وبعضنا يصر على الاستمساك بها...

إن التراجع الإسلامي عودة إلى الجاهلية، وان الجاهلية جاهزة للانقضاض، في كل لحظة ضعف إسلامية ، لقد حاولت الانقضاض في غزوة بني المصطلق، والرسول صلى الله عليه وسلم يرعى المسيرة أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ والخطورة كل الخطورة الآن، أن ننسج الأثواب الإسلامية لنلبسها لأمور الجاهلية الحديثة فنمارس الجاهلية تحت عناوين وشعارات إسلامية، إن مساحة الجاهلية في حياة الإنسان المسلم ، تتسع وتضيق ــ بقدر ما يوفقه الله للرؤية الإسلامية والإنضباط بها، وإن سقوط الإنسان في بعض أمور الجاهلية، لايعني أن نسلب منه إسلامه كما يحلو لبعضهم من الذين يمارسون إشاعة هذا المصطلح، ويحاولون تعميمه ذلك أن التعميم لون من العامية في الرؤية، فالرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر عندما عير بلالا بأمه : إنك امرؤ فيك جاهلية. رواه أبو داود، إن سلوك التعبير هذا ينتسب إلى الجاهلية، ولايعني بحال من الأحوال، سلب أبي ذر رضي الله عنه فضله وإسلامه، وجهاده ... فهل تكون المواسم الإسلامية ونداء حجة الوداع فرصة لمطاردة الجاهلية في نفوسنا، وتخليص مجتمعنا الإسلامي، من بعض مفهوماتها وأمورها بالحكمة والموعظة الحسنة؟

ذلك أن فقدان الحكمة في الموضوع قد يؤدي إلى تكريسها واستغلالها.

النقـــل الثقـــافي :

فليبلغ الشاهد الغائب ... فرب مبلغ أوعى من سامع ... إنها مسؤولية البلاغ المبين التي لاتخرج هنا عن مسؤولية التحمل ومن ثم مسؤولية الأداء، لقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم غاية مهمته : البلاغ، فقال : ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد وبذلك يكون الرسول صلى الله عله وسلم شهيدا على المسلمين ويكون المسلمون شهداء على الناس ، يوصلون إليهم هذا الدين ، ويطورون وسائلهم في نقل حقائقه لانقاذ الناس من الجاهلية...

وهنا قضية تلفت النظر : " رب مبلغ أوعى من سامع " فعملية الحفظ وسلامة النقل لاتعني بالضرورة، القدرة على الفهم والوعي ، والإدراك لمدلولات الخطاب، فليست القضية قضية حفظ فقط، قد يكون صاحبها نسخة من كتاب وإنما القضية قضية الفقه والوعي والدراية، وهي قضية على غاية من الأهمية، لعالم المسلمين اليوم ، ذلك أن بعض الناس اليوم كالأرض التي تمسك الماء لكنها لاتنبت الكلأ ... إن مسؤولية وأمانة النقل الثقافي ، عملية البلاغ المبين ومسؤولية الوعي والقدرة عل فهم السنن ، وإمكانية التعامل معها، هي مشكلة المسلمين الثقافية اليوم... فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع... إنها المعاني التي شهدها الصحابة الحجاج في مكة العام التاسع للهجرة، وحملوا مسؤولية نقلها إلى العالم، ليكونوا شهداء على الناس، بعد أن كان الرسول شهيدا عليهم إنها المسؤولية المحددة، والمهمة الدائمة للمسلم، في مجال عالم الأفكار، والوعي الثقافي، المسؤولية المحددة تقابلها الحيدة المهلكة المدمرة لبعض

مسلمي اليوم، في القعود عن مهمة البلاغ المبين، والاشتغال بوسائل أخرى ، والسير في طرق وعرة شائكة....

موقع الحاكم وأمانـــة الحكم :

إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، إن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ... لقد جاء الإسلام بنموذج للحكم والحاكم متفرد، في الوقت الذي كان الحكام فيه يمثلون الآلهة أو ظل الله على الأرض .. وكانوا يعبدون من دون الله حيث كان تأليه الحاكم من المسلمات...

إن الشخصية الحضارية الإسلامية، لها مقومات في مجال الحكم ومواصفات في اختيار الحاكم وصفاته، ولها تاريخ مشهود في التطبيق والممارســـة وسوف تبقى هذه الشخصية التاريخية، شاهد إدانة على الممارسات القمعية والإستعلاء بالسلطان، التي يعاني منها عالم اليوم، إنه المقياس، الذي ينظم حكم الحاكم قبل المحكوم إن أول ربـــا أبـــدأ بوضعه ربـــا عمي العباس ... وإن أول دم أضعه دم ابن ربيعة بن الحارث ... إنها قيم السماء، التي لابد للبشر من وضعها موضع التنفيذ والإلتزام، يتعاون على إنفاذها الحاكم والمحكوم ... إن الإنسان المسلم الذي يرى في تاريخه هذه النماذج، يصعب عليه بعدها أن يرضى بهما هو دونها، وسوف يبذل جهده دائما لاستردادها والعمل لها...

تقوى الله في النســـاء : اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتمـــوهن بأمانة الله . مما لاشك فيه أن قـــضية المرأة في الحياة الإسلامية وخاصة في عهود التـــخلف،

تحكم فيها أكثر من عامل واختلطت فيها المفاهيم، والتبست العادات السائدة، في بعض المجتمعات الإسلامية، بالأحكام الشرعية، حتى لنكـــاد نقول : إن كثيرا من العادات قد ألبست الثوب الإسلامي، واعتبرت من الدين، أو اعتبرت دينا لدرجة غابت معها الصورة العملية للمرأة المسلمة، وعلى الرغم من العنوان الإسلامي، لكثير من الأسر، إلا أن الثقافة الجاهلية، تضغط على تصرفاتنا، تجاه المرأة بين التسيب المطلق، والتشدد، الذي قد يفقدها إنسانيتها الأمر الذي ينأى عنه دين الله عز وجل ويأباه شرعه ... ولاشك أيضا أننـــا أوتينا من قبـــل المـــرأة، وغزينا من طريـــق الأسرة، وأقمنا المعارك لحماية حدودها والحيلولة دون اقتحامها ، لكننا عدنا إلى الأسرة المسلمة، فلم نجدها، لم نجد المرأة المسلمة فعلا، والطفل المسلم والتربية الإسلامية، والممارسة الإسلامية، وكثيرا منا تأبى عليه نفسه وثقافته، أن يعطي المرأة المسلمة دوره ، في الحياة، الذي مارسته زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، من التعليم، والرواية، والمبايعة والمشاركة في الجهاد، ومعرفة الحيـــاة وإلا فكيف يمكن لها أن تقوم بدورها وتؤدي رسالتها، وتنشئ أطفالها لعصر لاتدرك طبعيته، ولاتعرف مشكلاته، ولاتشارك في قضاياه ؟ وهناك حقيقة تغيب عن بالنا في ظل التقاليد والعادات، التي أصبحت من الدين، وهي أن الأكرم : في الإسلام الأتقى فليس الأكرم : الذكر، وليست الأكرم : الأنثى، وإنما الأكرم : الأتقى؟ وأن خطاب التكليف إنما جاء للرجل، وللمرأة على حد سواء، وأن المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق الإنسانية العامة، ليست محل نظر، وبعدها يبقى لكل اختصاصه في مجال الحياة، وبالتالي يمكن المقايسة، وطرح قضية المساواة بين اختصاصيين متباينين، فالمرأة في

اختصاصها، أفضل من الرجل في اختصاصها، ومقدمة عليه، والرجل في اختصاصه أفضل من المرأة في اختصاصه، ومقدم عليها، أما في مجال الحقوق الإنسانيـــة فهـــم سواء، ولكـــل جزاؤه : " **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** " (النحل:97) والقوامة التي شرعها الله، الرجال قوامون على النساء إنما هي للإشراف والإدارة، في الأسرة البنية الإجتماعية الأولى، التي لايمكن أن تترك تأكلها الفوضى، وليست للتشريف والتعالي، فلابد من تفكيك الصورة الموروثة، واختبارها، وتنقيتها، مما لحق بها لنرى صورة المرأة المسلمة خالية من كل غبش، ونستجيب لنداء الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : " اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله...

الاعتصام بالكتـــاب:

قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي : كتاب الله ... لاحاجـــة بنا إلى القول : إن القرآن الكريم كتاب الله، وإن الذي خلق الإنسان، أعلم بما يحقق سعادته، ويحميه من الضياع والضنك، إنها القيم الثابتة، البعيدة عن وضع البشر وتحكم الأهواء وتحقيق السيطرة والإستغلال، وتحقيق مصلحة لطبقة، أو فئة او طائفة، أو فرد ... ذلك أن معظم الشر في العالم مرده، تسلط الإنسان على الإنسان, ولابد لإيقاف هذا التسلط، من أن تستمد القيم من الله الخالق وليس من بعض مخلوقاته.إن كثيرا من القيم الوضعية، في عالمنا المعاصر، أشبه بدمى الأطفال، يحكمها الناس ويشكلونها على الصورة التي يختارونها، وتبقى

محل نزاع وخصام، يفرضها الأقوياء ويتوهمون أنها تحقق مصالحهم، وما أسهل أن يغيروها ويبدلوها تبعا لأهوائهم، وتبقى عاجزة عن حكم الناس، ويبقى أصحابها عاجزين عن تحقيق الاحترام لها، والالتزام بها، من بقية النـــاس، ذلك أن الالتزام بها، يبقى طاعـــة للمخلوق، أما كتاب الله فهو القيـــم الثابتة ـــ التي تحكم الناس ولايحكمها الناس، يخف الإنسان للإلتزام بها، بوازع لايمكن أن يتحقق لغيرها، فالطاعة لله الخالق العليم المحاسب، الذي يعلم خائنة الأعين، وماتخفي الصدور ... وفي الاعتصام بالكتاب ، عصمة من الخطأ، وأمن من الضلال، والشاهد التاريخي يقول : إن التزام العرب المسلمين واعتصامهم بالقرآن الكريم، كـــان سبيل وحدتهم وحضارتهم، وإن الحيدة عنه، كـــانت سبب فشلهم وتخلفهـــم وفرقتهـــم، والواقـــع يشهـــد بذلك أيضا، والله عزوجل يقول :" **أطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** " (الأنفال:46) لقد اعتبرت الآيات ـــ أن العدول عن طاعة الله ورسوله موقع النزاع ، لتعدد الأهواء والآراء ... وبعد : فإن نداء خطبة الوداع نوجهه لأنفسنا اليوم ولكافة الناس لعله يحقق المراجعة المطلوبة، والاستقامة على الطريق والإستجابة لنداء سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل...

الدروس والعبر في خطبة أفصح العرب طـــرا : خطبة الرسول صلى الله عـــليه وسلم تعتـــبر وثيقة من وثائق الإسلام، ومثـــلا أعلى لكل داعـــية ونموذجا للخطبة الناجحة يحتذيه الخطيب الناجح. وفي الخطبة من الدروس والعبر ما لو أدركه الدعاة والخطباء لأدت الخطابة رسالتها أحسن مايكون الأداء ...

ومن أهم هذه الدروس:

أولا : الإخلاص والحرص على هداية الناس : فالإخلاص هو مدار الأمر كله بعد الفقه لمعنى الخطابة ـــ إذ به يصل الكلام إلى القلوب، فيتمثله الناس واقعا عمليا في حياتهم، وبغيره لايتعدى الكلام الآذان، ولو ملك الخطيب ناصية البيان وقوة الحجة ونصاعة البرهان.

من هنا وجدنا الإخلاص متمثلا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصيح في هذا الجمع الحاشد : " اسمعوا قولي فإني لاأدري لعلي لاألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ".

بإن الذي يعيش الموقف مع هذا الجمهور يشعر أن النبي صلى الله عليه وسلم مع هذه الأمة بمثابة الأب مع أبنائه ، يريد ألا يدعهم في آخر لقاء بهم قبل أن يلقي في آذانهم آخر مالديه من نصح وحب وإرشاد.

وهذا من تمام حرص النبي صلى الله عليه وسلم على قومه وإخلاصه لهم " كان يحس أن هذا الركب ينطلق في بيداء الحياة وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه بالرشد، ويذكره بما ينفعه أبدا أفلم تكن تغني ثلاث وعشرون سنة ـــ هي عمر الدعوة في هذا الوقت ـــ عن هذا البيان الأخير ؟ ولكن النبي الرؤوف الرحيم يريد أن يضع اللمسات الأخيرة والمبادئ الكلية، وأهداف الرسالة وخلاصتها قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى،لتظل هذه التوجيهات، وتلك الصيحات حاضرة في أذهانهم، ترددها آذانهم بعد رسول الله أبدا الآبدين.

تكرر في القرآن الكريم على لسان الأنبياء " فاتقوا الله وأطيعون إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم "، وماأسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين " وغير ذلك.

وفي هؤلاء الأنبياء جميعا أسوة للدعاة إلى الله الذين يواجهون المجتمع ، ويوجهون الجماهير إلى الله تعالى.

ثانيـــا : جذب الجمهور وتهيئته من أول الخطبة :

وقد أطلق النبي صلى الله عليه وسلم في البداية عبارته الفاجعة : " لعلي لاألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ". وهنا تشرئب الأعناق، وتتطاول الرقاب، وتترقب الآذان مايلقى من وعظ ومن إرشاد.

إن وسائل الجذب وبراعة الإستهلال أول الخطبة ليتهيأ الناس للكلام لاحصرلها يملكها الخطيب اللبيب من خلال الواقع الذي يموج بأحداث يعيشها الناس، ومن خلال القضايا المثارة في المجتمع، والتي ينبغي أن يكون الخطيب على دراية كاملة بها.

و لم يكن هذا الدرس الهام في بداية خطبة النبي فقط ، إنما تخلل مواضع كثيرة منها فكم قال : " أيها الناس "، وقال : " اسمعوا قولي واعقلوه "، وقال : "فاعقلوا أيها الناس قولي " ثم يرمي بالتبعة على كاهلهم حتى ينتبهوا لخطورة الكلام حين قال : " فإني قد بلغت "، وفي النهاية " اللهم اشهد ". والقرآن الكريم يعلمنا هذا الأسلوب في كثير من سوره : فمرة يبدأ السورة بذكر شيء ثم يستفهم عنه ، ثم يعظم من شأنه " **الحاقة ما الحاقة وماأدراك مالحاقة** "

وقوله: " **القارعة ما القارعة وماأدراك مالقارعة** "، ومرة يفاجئ الناس بوقائع مرهبة، وأحداث مرعبة : " **إذا الشمس كورت وإذا النجـــوم، انكدرت وإذا الجبال سيرت** .. ومرة أخرى يثير تساؤلا، ثم يجيـــب عنه : " **عم يتساءلون عن النبأ العظيم** " ومرة يبدأ بقسم ــ والقسم يشير إلى أهمية مابعده، مثل قوله: " **ن والقلم ومايسطرون** " إلى آخر هذه الوسائل المثيرة للعقل والوجدان معا.

والخطيب الحـــاذق هو الذي يتعلم من هذا الكلام المعجز ، فيوظف أحداث عصره في ذلك ، ثم يستهدي الشفاء والدواء من كلام الله ورسوله.

ثالثـــا : التركيز على المتفق عليه وترك المختلف فيه:

فينبغي ألا تثار قضايا الخلاف على المنبر في حضور هذا التجمع، أو في أي تجمع، لئلا يحدث ذلك اضطرابا واختلافا وجدلا بين الناس، وما لأجل هذا جعلت المنابر، إنما جعلـــت لتثبيت أركان التوحيد، وتقرير شعائر الإسلام وتوضيح مبادئه الكلية ومقاصده العامة. هناك نوع من الخطباء لاينقصهم الإخلاص بقدر ماينقصهم حسن الفهم وعمق التجربة يصعدون المنابر-وليتهم لايصعدون - من أجل إثارة هذه القضايا التي لم ينته الخلاف فيها أزلا، ولن ينتهي الخلاف فيها أبدا، ويقيمونها مقام أصول الإســـلام، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، فينقسم الناس إلى طوائف يتراشقون ويتشاحنون ، وليتهم شغلوا أنفسهم بالمتفـــق عليه- وهو كثير- أو بقضايا واقعهم المخزي المرير.

إن المتأمل في خطبة الوداع لايجد فيها إلا أصول الإسلام العامة ومبادئه الكلية التي لايختلف فيها اثنان. من يختلف في حرمة دم المسلم ومالـــه وعرضه وأداء

الأمانة ؟ أو من يشـــك في حرمة الربا؟ أو من ينكر حقوق المرأة التي قررها الإسلام ؟ أو من يماري في أن الرابطة العليا هي أخوة الإسلام؟ بل من يتكلم في كلمة النبي الجامعة : " تركت فيكم ماإن اعتصمتـــم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا : كتاب الله وسنة نبيه ".

إن إثارة القضايا الخلافية في تجمعات الناس وجمعهم ليعد نوعا من السفه الذي يترفع عنه الدعاة الذين أقامهم الله مقام الأنبياء ليضيئوا ظلمات الأرض بنور السماء.

رابعـــا : شمول الخطبة أمور الدنيا والآخرة :

من الخطباء من يجعل شغله الشاغل وهمه الأكبر الحديث عن عذاب القبر وعذاب النار، وسخط الله وعقابه، وقضايا الآخرة عموما، ويعتبر الحديث عن شؤون الدنيا أمرا ينبغي ألا يكون موضوع خطبة، بل يجب على الخطباء أن يجتنبوه فإن الخطبة ـــ بزعمهم ـــ تقوم على الوعـــظ الذي يشمل التخويـــف والترهيب وحسب.

ومانحن بصدده أكبر دحض لهذا ، وإن أطول آية في كتاب الله تعالى تعالج أمرا دنيويا.

إن النبي صلى الله عليه وسلـــم في خطبتـــه هذه لم يركـــز على أمور الآخرة ـــ على أهميتها ـــ بقدر ماركز على شؤون الدنيا فقد ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم، أنهم يلقون ربهم فيسألهم عن أعمالهم، ثم يبين لهم سبل غواية الشيطان وحذرهم منه، لاتكاد الخطبة تذكر من أمور الآخرة شيئا سوى ذلك. أما بقيتها فتعالج شؤون الحياة الدنيا، فإن صلاح الآخرة مرهون بإصلاح

الدنيا، والذين لايبنون دنياهم يهدمون آخرتهم.

بينما قرر النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا الكثير والكثير، ومن ذلك:

ـــ حرمة الأموال والدماء والأعراض : وهذا يمثل مفرق الطريق بين نظام الإسلام والنظم الأخرى من شيوعية ورأسمالية وغيرها.

ـــ حرمة الربا : وهو هذا النظام الذي يسحق الفقراء ، ويجعل المجتمع طبقيا .

ـــ العدل والمساواة وحقن الدماء : حيث وضع النبي الربا، وأول ربا وضعه هو ربا عمه العباس بن عبد المطلب، ووضع دماء الجاهلية، وأول دم وضعه دم ابن عمه، ابن ربيعة بن الحارث.

ـــ حق الرجل على المرأة وحق المرأة على الرجل : يبلوران أسس العلاقة التي تقوم عليها كبرى لبنات المجتمع المسلم.

ـــ حق المسلم على أخيه المسلم : وهو بيان أن الرابطة العليا في الأمة هي رابطة العقيدة.

هل ترك النبي من أنواع العلاقات شيئا؟

لقد ذكر علاقة المسلم بنفسه ، عندما حذر من الشيطان وأوصانا بمجاهدته .

وذكر علاقة المسلم بربه ، عندما تحدث عن لقائنا بالله وسؤاله لنا.

وذكر علاقة المسلم بمجتمعه الصغير " الأسرة "، عندما ذكر حقوق النساء وأوصى بهن خيرا ،وذكر علاقة المسلم بمجتمعه الكبير، عندما قرر حرمة الدماء والأموال والأعراض وأمر بأداء الأمانة.

وذكر علاقة المسلم بمجتمعه الأكبر ، وهي الأخوة التي تنظمها العقيدة ، لتكون الرابطة العليا في الأمة. إن الخطابة التي تقتصر على أمور الآخرة والترهيب،

وتهمل شؤون الدنيا ، تبعث على اليأس والقنوط، وتجعل الناس في حالة من السآمة والملل والإعراض، مالم تشتمل على قضايا تلمس واقع الناس ، وتعالج مشكلاتهم. " وبـــهذا ينبغي ألا يجيء الكلام على المنابر إلا حيا بحياة الوقت، فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجديد، ومن ثم يسطيع أن يكون بينه وبين الحياة عمل. إن كل نبي من الأنبياء أرسله الله ليعالج مرضا واقعيا موجودا في حياة الناس وذلك باستهداء الوحي الذي يتزله الله عليه مع الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده قبل كل شيء. وهكذا المجددون والمصلحون يبعثهم الله بعد انقطاع من الزمن ليجددوا ويحيوا معالم الإسلام التي انطمست وماتت أو تكاد ـــ في ضمير الأمة.

خامســـا : الإقتباس من القرآن والسير معه:

وهذه لايتقنها أشباه الخطباء ، إنما يقدر عليها أولو العزم منهم ، الذين استظهروا كتاب الله قراءة وحفظا وتفسيرا وتدبرا وقبل ذلك حازوا ثقافة اللغة والأدب، إن النبي صلى الله عليه وسلم ضمن خطبته معاني وآيات قرآنية كثيرة، وكيف لا وهو أفصـــح من نطـــق بالضـــاد، من ذلـــك " **لكم رؤوس أموالكـــم لاتظلمـــون ولاتظلمون** " (البقرة :279) ، و" **إنما النسيء زيادة في الكفر**... (التوبة:37) و"**ألا يأتين بفاحشة مبينة**" (النساء :19).

و"**تهجروهن في** ... (التوبة:37) و"**تهجروهن في المضاجع وتضربوهن**"(6)، وغير ذلك.

وكيف يكون داعية إلى الله من لايفقه كلام الله قراءة وحفظا ، فضلا عن

إدراك أسراره ومقاصده؟ فالقرآن لم يدع أمرا من شؤون الدنيا والأخرة إلا تحدث فيه والخطبة التي تخلو من كلام الله ينقصها الكثير.

إن " الخطيب الذي يصلح للتحدث عن الإسلام رجل خبير بالحياة وعللها، مكين في الوحي الأعلى ، يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي ــ رحمه الله " لاتسمى خطابة إسلاميـــة هذه الكلمات الميتة التي يسمعها الناس في بعض المساجد ثم يخرجون وهم لايدرون ماذا قال خطيبهم، لأنه لم يصل احدا منهم بروح القرآن، ولاأنعش قلبا بمعانيه ولاعلق بصرا بأغراضه.وبجانب الإقتباس من القرآن يليق للخطيب أيضا أن يسير مع القرآن ، فهناك قضايا ركز عليها القرآن، وأطـــال الحديث عنها في غير موضع، وهناك قضايا ذكرها في موضع أو موضعين، وبين هذه وتلك تفاوت ونسبية في عرض القرآن لايركز على أمر إلا إذا كان له أثره الكبير في معاش الناس ومعادهم.

سادســـا : على الداعية البلاغ وليس عليه النتائج:

وهذا أمر حسمه القرآن مع الرسول صلى الله عليه وسلم، إذا قال له : " **ليس لك من الأمر شيء** " (آل عمران :129) " **وليس عليك هداهم** "(البقرة : 272) و " **إنك لاتهدي من أحببت** " (القصص : 56) و" **إن أنت إلا نذيـــر**" (فاطر: 23) و" **فإنما عليـــك البلاغ** " (آل عمران :20).

إلى آخر هذه الآيات التي تحسم الأمر بوضوح لالبس معه، ولاشبهة فيه. وفي خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يلقي التبعة عليهم ــ بعد أن بلغ ماعليه ــ بأنهم سيلقون ربهم، ويسألهم عن أعمالهم وكم تكرر في خطبته الجامعة :

" اللهم هل بلغت؟ " فتردد الجماهير " اللهم اشهد ".وهذا بالطبع لايتنافى مع شعور الداعية بالأسف والحزن على مابه قومه من ضلالة وأنهم على غير الصراط المستقيم فقد كان صلوات الله عليه أوضح مثل لذلك حتى أنزل الله عليه يواسيه ويخفف عنه :" **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** " (الكهف :6) وقوله : " **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** " (الشعراء : 3) والداعية يسير بهذا الحرص عل قومه ، ويرجو الله أن يهديهم، لكنه لايقنط ولاييأس إن استجابت له قلة، أو لم يستجب له أحد، فلقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وما آمن معه إلا قليل .

المهم أنه أدى ماعليه، وبلغ ماأناط الله بعنقه، وأشهد الله وأشهدهم على ذلك كما فعل مؤمن آل فرعون ، وقد سلك مع قومه كل سبيل ، ثم قال في النهاية:

" **فستذكرون ماأقول لكم وأفوض أمري إلى الله** " (غافر : 44) إن خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت بمثابة رسالة حضارية، مفتوحة وموجهة للعالم أجمع، كيفما كانت ألوان الناس وألسنتهم وأجناسهم. فكم هي البشرية اليوم بحاجة ماسة ــ بعد أن وصلت إلى ماوصلت إليه ــ إلى مراجعة نفسها وتدارك أمرها والإهتداء بهدي من أرسله الله رحمة للعالمين ، فهل تفيء البشرية إلى رشدها أم تبقى في غيها لاتلوي على أحد، ولاتقيم وزنا لدين أو خلق . وفقنا الله لصالح القول والعمل، وختم لنا بالحسنى وزيادة، والحمد لله رب العالمين.

المراجـــع المعتمـــدة :

1 . السيرة النبوية لابن هشام :6(8-11) دار الجيل- بيروت.ط أولى1411 هـــ **بتحقيق عبد الرؤوف سعد.**

2. فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي.

3. محمد رسول الله للشيخ محمد رضا أمين مكتبة القاهرة سابقا

4. مع الله . دراسات في الدعوة والدعاة للشيخ الغزالي دار الكتب الإسلامية ط. 4056هـــ.

5. بسيوني ، محمود شريف ، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان ، المجلد الثاني دار الشروق ، القاهرة ،2003

وقد نشرت هذه الوثيقة بتصريح من المعهد الدولي لحقوق الإنسان بجامعـــة دي بول شيكاغو .

---

1. إنما قال النبي ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبا ، فبين أنه رجب مضر

لارجب ربيعة ، وأنه الذي بين جمادى وشعبان .

2. عوان : جمع عانيه ، وهي الأسيرة .